حاربت الاستعمار الفرنسي طفلة وباحثة بمراكز عالمية

مغنية لزرق.. نجمة ساطعة في الأدب والفكر والعلم

● "واشنطن بوست": "كانت من أبرز الأصوات الأكاديمية وأكثرها احترامًا في شؤون المرأة في شمال إفريقيا"

رحلت مغنية لزرق، عالمة الاجتماع الجزائرية التي لطالما أضاءت دروب المعرفة بنهجها التاريخي المبتكر، في الثالث عشر من يناير في مدينة نيويورك عن عمر ناهز 83 عامًا. وقد وصفتها صحيفة واشنطن بوست في نعيها بأنها "كانت من بين أبرز الأصوات الأكاديمية وأكثرها احترامًا في شؤون المرأة في شمال إفريقيا."

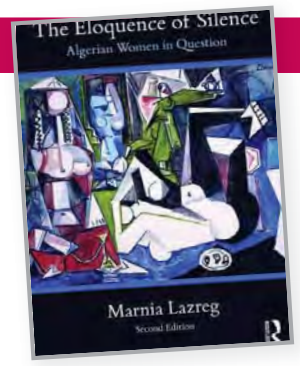

نقّح النص: م. دكار

● لم تقتصر إسهامات مغنية لزرق التي استقرت في الولايات المتحدة الأمريكية واختارت الكتابة باللغة الإنجليزية طوال مسيرتها الأكاديمية الحافلة التي امتدت لنصف قرن، على كونها مجرد باحثة، بل تجاوزت ذلك لتكون رائدة في الفكر والعمل، فقد أثرت في أعمالها الجوهرية طيفًا واسعًا من المجالات، بما في ذلك التنمية الدولية، والموجة الثانية من الحركة النسوية، والتعذيب، والاستعمار، والإسلام، ودراسات فوكو. وكتبت عنها صحيفة "نيويورك تايمز": "كانت كتب لزرق استثنائية لأنها نفسها كانت استثنائية: باحثة جزائرية الأصل، اختارت أن تتخذ من أمريكا مقراً لها، وكتبت باللغة الإنجليزية من منظور نسوي مناهض للاستعمار."

لم تكن مغنية لزرق مُنظّرة بارعة فحسب، بل كانت ممارسة ناجحة، حيث عملت لسنوات طويلة في البنك الدولي، مُشرفةعلى جهود شمول المرأة في برامج الإقراض في أوروبا الشرقية وآسيا الوسطى، بالإضافة إلى الجزائر، كما قدمت استشاراتها القيّمة للأمم المتحدة حول قضايا المرأة في مشاريع التنمية في جميع أنحاء العالم.

حظيت لزرق بالتقدير والاعتراف بفضل مسيرتها الأكاديمية المتميزة، حيث حصلت على زمالات مرموقة من جامعة هارفارد، ومعهد الدراسات المتقدمة في برينستون، وجامعة براون، ومركز روكفلر بيلاجيو، وغيرها من المؤسسات الأكاديمية الرائدة. كرّمتها جمعية القناصل الأجانب في نيويورك، لمساهمتها الاستثنائية في تمكين المجتمع. وإلى جانب إصدارها لستة كتب أكاديمية قيّمة، أسهمت مغنية لزرق بعشرات المقالات في المجلات الأكاديمية والمجلدات المحررة. ولم يقتصر إبداعها على البحث الأكاديمي، بل كانت أيضًا روائية موهوبة، حيث نُشرت روايتها "صحوة الأم" عام 2019 تحت اسم مستعار في الجزائر، وحظيت بإشادة النقاد.

يجمع كل أعمال مغنية لزرق خيط ناظم واحد، كما أوضحت بنفسها في مقال نشرته عام 2020 عن رحلتها الفكرية، وهو الجزائر، فقد ظلت الجزائر شغلها الشاغل ومصدر إلهامها الدائم، حيث أنها، كجزائرية تلقت تعليمها في النظام المدرسي الاستعماري الذي لم يكن يدرس سوى التاريخ الفرنسي، أوضحت في أحد مقالاتها أن "الكتابة عن الجزائر هي رحلة اكتشاف لا تنتهي لتاريخ لم أتعلمه قط..". لقد كان عملها مناهضًا للاستعمار ومدافعًا عن حقوق المرأة، وكشف عن "رعبها من الجمود الفكري، سواء كان نظريًا أو منهجيًا أو سياسيًا"، كما أشارت صحيفة "واشنطن بوست" في مقالها عنها.

وانصب اهتمام لزرق العلمي الأول على التنمية الدولية، ففي كتابها الذي استند لأطروحتها للدكتوراه "نشأة الطبقات في الجزائر" (ويست–فيو، 1976)، قلبت لزرق سردية التنمية الماركسية رأسًا على عقب، مجادلةً بأن الاشتراكية الجزائرية في مرحلة ما بعد الاستقلال قد خلقت مفارقة تاريخية، إذ أسست نظامًا طبقيًا جديدًا في أعقاب تجربة استعمارية شهدت فيها الفوارق الطبقية تلاشيا تحت وطأة القهر الجماعي، وقد صدرت نسخة مُنقحة من هذا الكتاب باللغة العربية في عام 1977.

حوّلت مغنية اهتمامها إلى قضايا المرأة، مُوجهة نقدا لاذعا للنسويات الأمريكيات من الموجة الثانية، لاتباعهن نفس الخطاب الاستعلائي الذي استخدمه الرجال الغربيون لتبرير استعمار الشعوب غير الغربية، ولكن هذه المرة في نظرتهن تجاه المرأة غير الغربية، كان هذا نقدا جريئا وجديدا عندما نشرت مغنية لزرق كتابها "بلاغة الصمت" (روتليدج) في عام *1994*. وفي هذا *الكتاب*، فجّرت لزرق أسطورة المرأة المسلمة التي تدّعي أنها مقهورة وسلبية ومضطهدة وبحاجة إلى التحرير. فبالاعتماد على بحث مكثف في المحفوظات الجزائرية والفرنسية، أوضحت لزرق بالتفصيل المقاومة الهائلة التي أبدتها المرأة الجزائرية في مواجهة أنظمة الهيمنة المتعددة التي استهدفتها، وليس أقلها الاستعمار الفرنسي. لقد أصبح هذا الكتاب الذي انبثق من مقال شهير بعنوان "النسوية والاختلاف" نشرته لزرق في "دراسات نسوية" عام 1988، مرجعاً كلاسيكيًا في هذا المجال، وقد صدرت الطبعة الثانية المنقحة منه في 2019.

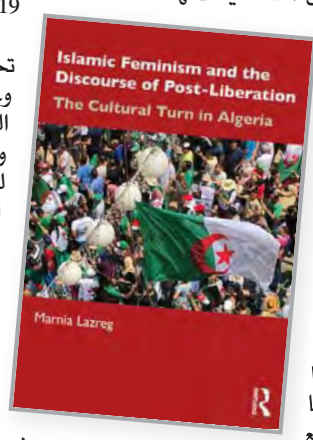

نشأت مغنية لزرق في مدينة مستغانم تحت وطأة الاستعمار الفرنسي، وعايشت واقعا قاسيا حاول فيه المحتل طمس هوية الشعب الجزائري وتقييد حصوله على التعليم. إلا أن لزرق، بفضل عزيمتها وإصرارها، استطاعت أن تتحدى هذا الواقع وتتفوق في دراستها، لتصبح واحدة من القلائل من الجزائريات في جيلها اللواتي حصلن على شهادة البكالوريا. وجاء هذا الإنجاز في ذروة وحشية الاستعمار الفرنسي الذي شهدته الجزائر، حيث قُتل مئات الآلاف من المدنيين الجزائريين وعُذّب الكثيرون بشكل مروّع خلال حرب التحرير.

لم تكن رحلة لزرق التعليمية سهلة، فقد عانت من التمييز والاضطهاد في المدرسة، حيث قام أحد المعلمين الفرنسيين بحبسها في خزانة، بينما وصفها آخر بـ«الإرهابية"، لكنها لم تستسلم، بل تفوقت على أقرانها عاما بعد عام، وتخرجت في صدارة فصلها.

وخلال سنوات دراستها الثانوية، أبدت اهتماما خاصا بتعلم اللغة الإنجليزية، حيث رأت فيها وسيلة للتحرر من الهيمنة الثقافية الفرنسية، واكتشاف آفاق جديدة للمعرفة والثقافة.

وبعد استقلال الجزائر، عملت لزرق في ولاية الجزائر ثم في شركة سوناطراك، الشركة الوطنية الجزائرية للنفط. وفي منتصف الستينيات، كانت بأول مكتب لسوناطراك في الولايات المتحدة، وتحديدًا في مركز "روكفلر" بنيويورك، لتبدأ فصلا جديدًا في حياتها المهنية.

في السنوات التي تلت أحداث 11 سبتمبر، أثار اهتمام لزرق التقارير التي تفيد بأن المخططين الأمريكيين "للحرب على الإرهاب" كانوا يدرسون ممارسات مكافحة التمرد – بما في ذلك وسائل التعذيب – التي استخدمتها فرنسا في الجزائر خلال فترة نشأتها. ومن خلال تحليلها العميق لتأثير الأفكار على السلوك، أدركت لزرق أن ما يربط بين استجابة أمريكا لأحداث 11 سبتمبر والتاريخ الاستعماري للغرب ليس مجرد سياسة أو أسلوب معيّن، بل هو نمط تفكير استبدادي تجلى بوضوح في المحاولات الغربية لتبرير التعذيب على المستوى النظري.

انغمست لزرق بعد ذلك في دراسة ممارسات التعذيب التي مورست خلال الحقبة الاستعمارية، مستعينةً ببحث مكثف في الأرشيف الفرنسي والجزائري. وفي كتابها "التعذيب وشفق الإمبراطورية" (برينستون 2008)، تناولت دفاع المثقفين الفرنسيين عن التعذيب، المعروف بـ«نظرية الحرب الثورية"، بالإضافة إلى ممارسات التعذيب التي قام بها الجيش الفرنسي في الجزائر، وذلك في سياق استخدام أمريكا للتعذيب في سجن أبو غريب وفي "الحرب على الإرهاب". ويُعتبر هذا الكتاب الذي أبدعته خلال فترة وجودها في معهد الدراسات المتقدمة في برينستون، الدراسة الوحيدة التي تتعامل مع التعذيب كنتاج للنظرية ("التعذيب كرمز" كما وصفته لزرق)، كما يُعدّ أهم سرد تاريخي لاستخدام التعذيب من قبل الفرنسيين في الجزائر. وقد تمت ترجمة الكتاب إلى الفرنسية والعربية، كما أعيد إصداره في طبعة غلاف ورقي عام 2017.

خلال تدريسها دورة دراسات عليا عن ميشيل فوكو، لاحظت لزرق أن أبرز رموز النظرية الاجتماعية تعمد إلى إبراز التناقض بين ما اعتبره فوضى في موسوعة صينية قديمة والنظام العلمي للثقافة الغربية. وبتعمّقها في مجموعة أعمال فوكو التي تتضمن نقاشًا محدودًا بشكل لافت للنظر حول الفكر غير الغربي، صادفت تأكيدًا من فوكو بأن "الشرق" هو "حد" العقلانية الغربية. وعلى الرغم من تأليفه لنقد شهير للسلطة والمعرفة، بدا أن فوكو قد سقط في نفس المنطق الاستعلائي الذي يميّز الكثير من الدراسات الغربية، وهو اختزال الشرق في صورة نمطية جامدة.

في كتابها "شرق فوكو" (بيرغان 2017)، تقدم مغنية لزرق تحليلا معمّقًا لرؤى فوكو حول الثقافات غير الغربية، معتمدةً ليس فقط على أعماله المنشورة، بل أيضًا على مقابلات حصرية أجرتها مع من عاصروا فوكو في رحلاته إلى تلك البلدان، بما في ذلك تونس واليابان. في عمل يمزج، على غرار كتبها السابقة، بين النظرية العميقة – في هذه الحالة، فلسفة الأنثروبولوجيا – والبحث التاريخي الأصيل، ترصد لزرق نظرة فوكو المُحبطة تجاه غير الغربيين، عازيةً إياها إلى رفضه لأنثروبولوجيا كانت الكونية لصالح مفهوم محلي للثقافة. ويتجلى في هذا الكتاب الذي هو ثمرة انخراط متواصل في مجالين لم يسبق لها النشر فيهما (الفلسفة والأنثروبولوجيا) يحمل في طياته نقدًا لجذور فكر فوكو، اتساع نطاق لزرق الفكري وبراعتها النظرية. وقد وصفت مجلة "علم الاجتماع المعاصر" الكتاب بأنه يرسم "صورة قاتمة" لفوكو، وأعيد إصداره بغلاف ورقي عام 2020.

وفي أحدث مؤلفاتها، تجمع مغنية لزرق ثلاثة محاور من أعمالها السابقة (المرأة، الإسلام، والاستعمار)، في نقدها لمحاولات بعض الدول الإسلامية التي تتعاون أحيانًا مع داعمين غربيين يخوضون الحرب على الإرهاب، لتأسيس تقدم دور المرأة على النص القرآني. وتركز لزرق في كتابها "النسوية الإسلامية وخطاب ما بعد التحرير" (2021) على الجزائر، مجادلةً بأن هذا النهج يحول دون تحقيق تقدم حقيقي في أدوار المرأة تلقى قبولًا اجتماعيًا واسعًا وطبيعيًا.

وقبل أن ترحل عن عالمنا، كانت مغنية تغوص في مجال دراسي جديد آخر، إذ أثار قلقها محاولة جيل جديد من المؤرخين الفرنسيين، من مختلف الأطياف السياسية، تبرير الماضي الاستعماري لفرنسا. وفي عمل كانت تنوي تسميته مؤقتًا "المراجعة الفرنسية وطمس الثورة الجزائرية"، شكّكت لزرق في محاولات المؤرخين الفرنسيين الأخيرة لتقديم تجربة الجزائر بعد التحرير على أنها فاشلة. كما أنها أنجزت مخطوطة روايتها الثانية، "ميرسو، المحاكمة" التي تعيد سرد مشهد المحاكمة الشهير في رواية ألبير كامو الخالدة "الغريب"، من منظور امرأة جزائرية شاهدة.

عين على التأليف وعين على البحث الأكاديمي والتنمية

وازى مسار لزرق الأكاديمي مسيرة مهنية ناجحة في مجال دمج المرأة في برامج التنمية الدولية، وانطلاقًا من دورها كمديرة لبرنامج السكان والتنمية في كلية هامبشاير بماساتشوستس في منتصف الثمانينيات، قدّمت لزرق استشارات دورية حول المرأة والتنمية لعدد من وكالات الأمم المتحدة، لاسيما برنامج الأمم المتحدة الإنمائي، وقد أخذها هذا العمل إلى الصين وروسيا وكوريا الشمالية وباكستان وفيتنام، وغيرها من البلدان. وبلغ عمل لزرق التنموي ذروته في إجازة أخذتها من مهامها الأكاديمية للعمل بدوام كامل في البنك الدولي في عامي 1999 و2000، وقدّمت في البنك استشارات لفرق الاقتصاديين حول دمج المرأة في مشاريع التنمية، كما ساهمت في مشاريع في الشرق الأوسط وشمال إفريقيا، بما في ذلك الجزائر.

امتد فكر مغنية لزرق وعملها ونشاطها إلى آفاق عالمية، وحين لا تكون في قاعة الدرس، تجدها منهمكةً في أرشيفات الحرب الجزائرية بباريس، أو تزور الأحياء الفقيرة بتركيا في مهمة للبنك الدولي، أو تتبادل أطراف الحديث مع صديق قديم لفوكو في مقهى بطوكيو، أو تجوب العالم محاضرةً، تقدّم ورقة بحثية بالفرنسية حول "المرأة والثورة المضادة" بتونس، وأخرى بالإنجليزية حول "النظرية النسوية الكوزموبوليتية" بزيورخ الشهر التالي، وثالثة عن "التمرد والثورة" في بودابست بعد فترة وجيزة.

كانت لزرق مُدرّسةً ذات فكر لا يكلّ، تستلهم متعتها في تطوير مقرّرات جديدة على مستوى البكالوريوس والدراسات العليا. على مدار مسيرتها، درّست أكثر من 20 مقرّرًا مختلفًا، الكثير منها من بنات أفكارها. فبالإضافة إلى مقرّراتها الأساسية في النظرية الاجتماعية، درّست لزرق مقرّرات حول المرأة، السكان، الإسلام، إنهاء الاستعمار، التنمية، النظرية الاجتماعية والتكنولوجيا الحيوية. كما كانت مُرشدة مخلصة لأجيال من طلاب الدكتوراه، أولاً في المدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية بنيويورك، ثم في مركز الدراسات العليا بجامعة نيويورك، بعضهم أصبحوا أصدقاء ورفقاء فكريين مدى الحياة.

يمتد ارتباط مغنية لزرق بجامعة مدينة نيويورك (CUNY) لأكثر من نصف قرن، فقد درّست أولًا في كلية بروكلين التابعة للجامعة أواخر الستينيات، ثم في قسم علم الاجتماع بكلية هانتر مطلع السبعينيات، بينما كانت لا تزال تُكمل أطروحتها للدكتوراه في جامعة نيويورك. وبعد أن أمضت عدّة سنوات في التدريس بالمدرسة الجديدة للبحوث الاجتماعية، عادت إلى كلية هانتر كأستاذة مساعدة زائرة أواخر السبعينيات. حصلت على زمالات في جامعتي براون وهارفارد قبل أن تعود إلى هانتر لتشغل منصبًا ثابتًا في عام 1988، في برنامج الدراسات النسائية بدايةً. قضت لزرق بقية مسيرتها الأكاديمية بالتدريس في كلية هانتر ومركز الدراسات العليا بجامعة نيويورك حيث تقاعدت، وكانت زميلة مرموقة في مجموعة البحث الأكاديمي التعاوني في مركز الدراسات العليا، وأستاذة مشاركة في برنامج حقوق الإنسان في معهد روزفلت هاوس للسياسة العامة بكلية هانتر.

حصلت مغنية لزرق على شهادة البكالوريا في الفلسفة والرياضيات بامتياز عام 1960، وشهادة الإجازة في الأدب الإنجليزي من جامعة الجزائر عام 1966، وشهادة الدكتوراه في علم الاجتماع من جامعة نيويورك عام 1974. وإلى جانب حصولها على العديد من الزمالات، كانت لزرق باحثة فولبرايت في الجزائر عام 2012. كما كانت عضوًا في ندوة الدراسات العربية بجامعة كولومبيا لمدة 35 عامًا، ومنتسبة لمركز البحث العلمي والتقني في الأنثروبولوجيا الاجتماعية والثقافية (CRASC) بوهران.

م. د